January Revolution And Freedom Of The Media

الفصل الثالث

الثورة وأزمة الإبداع النسائي

obeikan.com

obeikan.com

المبحث الأول

الثورة والإبداع في عيون المرأة العربية

دعتنى جمعية المبدعات العربيات فى تونس للمشاركة فى ندوة عقدت بمدينة سوسه التونسية وشاركت فيها نخبة متميزة من الكاتبات والباحثات من الجزائر والمغرب ومصر ولبنان وليبيا وتونس وفلسطين والعراق.

عرضت المشاركات شهادات واقعية عن المسيرة الطويلة الشاقة للمرأة العربية وعطاءاتها الإبداعية فى الأدب والفن والبحث العلمى والنضال السياسى والثورات العربية. وقد ركزت فى شهادتى على القيود السياسية والتحديات الاجتماعية التى واجهتنى خلال مسيرتى المهنية فى الصحافة أولاً ثم فى التعليم الجامعى والبحث العلمى وختمتها بسيرتى الذاتية ابتداء من نشأتى الأولى فى قرية صعيدية فى جنوب أسيوط يعانى أهلها (نساء ورجال) من الفقر والافقار والتهميش السياسى والثقافى والاجتماعى مروراً بتجربة الاعتقال فى سبتمبر ١٩٨١ ضمن كوكبة من المناضلين والمناضلات المصريات المعارضين لاتفاقية كامب ديفيد والصلح مع إسرائيل والتى انتهت باغتيال السادات ومجىء حسنى مبارك الذى أفرج عنا وأعادنا إلى جامعاتنا ثم طرحت مشاركتى فى الانتخابات النيابية عام ١٩٨٤

فى صعيد مصر والتى شهدت اغتيال المرشحة الأخرى فى أسوان نعمات حسن من جانب أحد أعضاء الحزب الحاكم. وكانت خاتمة الندوة عن الوطن الفلسطينى المحتل إذ جاءت المناضلة الفلسطينية ريم التى ولدت فى مانشيستر (انجلترا) ودرست الكيمياء ثم تخصصت فى موسيقى سيد درويش فى أكاديمية الفنون المصرية وقدمت عرضاً مسرحياً موسيقياً مبهراً يحكى مأساة الشعب الفلسطينى بصورة أبكت الجميع.

فى الكواليس وأثناء الاستراحات بين الجلسات دارت الحوارات مع الشقيقات العربيات ونالت النساء القادمات من مصر وتونس وليبيا النصيب الأكبر من التساؤلات والمناقشات وكانت البداية قصة الدكتور يوسف الصديق أستاذ الفلسفة بجامعة الزيتونة الذى حاصره الإسلاميون فى يوم ٢٦ إبريل فى غرفة مغلقة وطردوا الجمهور خارج القاعة ومنعوا الدكتور يوسف من إلقاء محاضرته عن العلاقة بين الدستور والشريعة. ثم توالت الحكايات عن الصراع المحتدم بين الشباب الإسلامى فى تونس وبين التيارات الأخرى من الليبراليين واليساريين والمستقلين والذى تجسد فى الهجوم على الأنشطة الإبداعية من فنون مسرحية وندوات فكرية ووصل إلى حد الهجوم بالأسلحة البيضاء علاوة على السخرية والازدراء ومختلف أشكال المطاردة والإيذاء اللفظى ضد النساء السافرات اللواتى يشكلن أغلبية المجتمع النسائى فى تونس. وعندما أبديت دهشتى وانزعاجى مما سمعته بسبب اختلاف الصورة الذهنية لدينا فى مصر عن المجتمع التونسى بعد ثورة الياسمين واعتقادنا بأنهم أفضل حالاً عما يحدث فى مصر انبرت بعض الشابات التونسيات لتوضيح حقيقة ما يدور داخل تونس حالياً تداخلت الأصوات وحاولت جاهدة أن ألتقط بعض التفسيرات من الحكايات العديدة التى سمعتها.

تقول سلمى بكار المخرجة السينمائية التونسية المعروفة بإنتاجها التقدمى عن قضايا المجتمع التونسى وفقرائه ونسائه (أن الجيل القديم من الإسلاميين أكثر

استنارة من الأجيال الجديدة لأنهم تعلموا من تجارب السجن والتشريد والمطاردة من جانب الحكم السابق وأصبحوا أكثر نضجاً وفهما للواقع التونسى بتعقيداته وإشكالاته واحتياجاته الحقيقية السياسية والاجتماعية والثقافية وقد انشغلوا فى المحاكمات ولم يمنحوا الأجيال الجديدة ما تستحقه من التربية الفكرية والثقافية ولذلك خرجت هذه الأجيال أكثر تشدداً وانغلاقاً) وتستطرد سلمى قائلة: إننى أخشى على مستقبل تونس من هؤلاء بسبب افتقادهم للاستنارة الفكرية والمرونة السياسية قالت ذلك تعليقاً على كلامى عن الأجيال الجديدة من الإخوان المسلمين فى مصر وأنهم أكثر اتساعاً فى الأفق وأعمق فهماً لضرورات التغيير ولذلك انضم عدد كبير منهم إلى التجمعات والائتلافات الثورية وشاركوا فى أحداث الثورة بعد اندلاعها ببضعة أيام ولكن الحرس القديم من الإخوان بسبب ما عانوه من قهر وسجن وتعتيم أصبحوا أكثر تشدداً وتشبثاً بالرؤى المنغلقة والتى لا تدرك عمق التطورات والتغيرات الاجتماعية والسياسية التى طرأت على المجتمع المصرى خلال السنوات الثلاثين الماضية يضاف إلى ذلك قلة بل انعدام الخبرة السياسية لدى الجماعات السلفية التى انضمت إلى ركب الإسلام السياسى ومن هنا جاء تخبطهم وارتباكهم وغياب فقه الأولويات عن أجندة اهتماماتهم. وعندما تقارن موقف تيارات الإسلام السياسى فى مصر ونظرائهم فى تونس الذى يتزعمه حزب النهضة يبدو الفرق واضحاً فقد أعلن راشد الغنوشي فور وصوله إلى تونس بعد هروب زين العابدين بن على أنه لن يترشح للانتخابات الرئاسية والتزم بما صرح كما أعلن الغنوشى موقفه من الشريعة الإسلامية والذى يتميز بالاستنارة والاستيعاب العميق لضرورات العصر ولاحتياجات المجتمع التونسى بعد قيام ثورة الياسمين إذ طرح رؤية حضارية غير مسبوقة عن كيفية الالتزام بالدين الإسلامى واللغة العربية باعتبارها أمور لا خلاف عليها ولا تقبل الالتباس أما تطبيق الشريعة فهو يختلف من عصر إلى آخر ومن مجتمع إسلامى إلى آخر ولا يزال هذا المفهوم ملتبساً إذ يرجع إلى اجتهادات الفقهاء فى مختلف العصور والمجتمعات الإسلامية. وقد يؤدى التزمت والانغلاق الفكرى إلى الجور على

حقوق النساء والإبداع الفنى والثقافى مما يؤدى إلى تقسيم المجتمع ونحن فى هذه المرحلة فى حاجة إلى وحدة المجتمع التونسى بإبداعاته وحقوق جميع أفراده من المسلمين وغير المسلمين بأغنيائه وفقرائه ونسائه ورجاله، ولذلك نؤمن بالدولة المدنية التى تتسع لجميع التيارات وتتيح لهم ممارسة حقوقهم كاملة دون قيود فقهية قد تجور على حرياتهم المدنية وحقوقهم الإنسانية خصوصاً حقوقهم فى حرية الإبداع والتعبير ولذلك (لا يزال الكلام للغنوشى) لم نسع إلى شق المجتمع التونسى فالإسلام يوحد الجميع. أما فى مصر فقد قاومت التيارات الإسلامية كثيراً قبل الموافقة على مدنية الدولة وأصروا على مبدأ الشريعة كمصدر أساسى للتشريع فضلاً عن تقلباتهم وتذبذب مواقفهم وتعدد تصريحاتهم وتناقضها ومواقفهم المعادية لحرية الفن والإبداع مما دفع جموع الفنانين والأدباء المصريين إلى تكوين جبهة للدفاع عن الإبداع. قالت إحدى الأديبات التونسيات (إننا ننتمى جميعاً إلى الدين الإسلامى ونؤمن بتعليم القرآن والسنة أما الاجتهادات البشرية فى تفسير النصوص الدينية فهى تختلف اختلاف الزمان والمكان وعلينا أن نستلهم سيرة الفقهاء العظام الذين تشربوا روح عصورهم وأزمانهم وعبروا عنها بأمانة. فلكل زمان فقهائه ونحن فى حاجة إلى تجديد الخطاب الدينى وفقه جديد ينتمى إلى عصرنا الحالى وطبيعة وظروف مجتمعاتنا ونتوقع من التيارات الإسلامية أن تجتهد وتطرح رؤى فقهية تلائم الاحتياجات المجتمعية المعاصرة ولكننا نخشى على حرية الإبداع من احتمال فرض الرؤية الأحادية المتزمتة خصوصاً من جانب بعض التيارات الإسلامية المنغلقة على ذاتها والتى لا تؤمن بحق التيارات الأخرى فى طرح وممارسة أفكارهم وعقائدهم وإبداعاتهم فى مناخ ديمقراطى حقيقى يتيح للجميع المشاركة فى إعادة بناء أوطاننا وتصحيح البوصلة الوجدانية والذهنية للأجيال الجديدة.

المبحث الثاني

إشكالية الحرية في كتابات المرأة العربية (تجربة ذاتية)

لقد فرض الصمت على المرأة عبر التاريخ وتم التعتيم على كل ما يتصل بها وبحياتها حيث أطلق على حياة النساء ما يسمى بثقافة الصمت.

ويرى الناقد الفرنسى أدوين أردنر أن النساء يشكلن المجموعة الصامتة فى المجتمع فى حين يشكل الرجال المجموعة أو الفئة المهيمنة التى تسيطر على اللغة وأساليب التعبير ولذلك كانت المرأة تعبر عن آرائها ومعتقداتها باستخدام الأساليب التى فرضها وكرسها الرجل وإن ما يحدد كتابة المرأة بالأساس هو تجربتها الذاتية وما تتميز به من زخم شعورى. وما يرتبط بها من معاناة وقمع ومحاولة دائبة للنهوض وإثبات الذات وكل هذه العوامل تشكل رؤيتها للذات ويبلور علاقتها بالعالم وموقفها منه.

لقد ظلت الكتابة عبر التاريخ سلطة وصاحب القلم ليس إلا صاحب سلطة وظلت الكتابة امتياز الرجال الخاص وتجسيد لسلطتهم ومنذ البدء عرف العرب أن سلطة الكتابة لا يجب أن تورث إلى النساء وهنا نتذكر وصية الأسلاف فى تربية البنات (لا تعلموهن الكتابة) وكان الهدف منها هو ألا تبعث النساء برسائل

يبثونها عواطفهن للرجال) ومن هنا جاء حرمان النساء من التعليم ولم يسمع صوت المرأة إلا فيما ندر. وتحولت ثقافة الصمت إلى جزء من الثقافة العربية. ومن أجل تغيير ميزان القوى فى المجتمع برزت ضرورة الإنصات لصوت المرأة والاعتراف بوجهة نظرها ورؤيتها الذاتية لنفسها وللعالم كما أنها تطرح فكرة إمكانية خلخلة للبنية الاجتماعية والثقافة القائمة ولأن سلطة الكتابة ظلت لمدة طويلة من حق الرجل وتم التعامل مع هذا الأمر بوصفه حقيقة مطلقة ولأن المطلق يصعب تغييره لذلك أثارت كتابات المرأة ضجة لم تهدأ حتى الآن وهذه الضجة ليست سوى خلخلة للبنية الذكورية الراسخة المتحيزة.

ومنذ زمن بعيد فرض الصمت على إمكانية التعبير الإبداعى من جانب المرأة العربية وهذا لا يعنى غياب المبدعات فى التاريخ العربى ولكنه يعنى قلة عددهن الملحوظة بالنسبة لعدد الرجال فالعقم الإبداعى فرض على المرأة العربية بسبب ظروف مجتمعية وتاريخية غير منصفة وهذه الظروف نفسها هى التى فرضت خصوصية الكاتبة العربية. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن مجتمعاتنا العربية تسعى حالياً للتحرر من القهر بشكل عام وذلك تحت مسمى (قضية الحريات) التى تتضمن حرية التعبير والبوح والإبداع ولكن هذه المجتمعات لا تزال متحفظة برجالها ونسائها تجاه قضية الإبداع النسوى ويتجلى ذلك فى عدة أشكال أبرزها تغييب الممارسة النقدية النسوية فضلاً عن إحالة كل ما تكتبه المرأة على خبراتها الذاتية علاوة على أحكام أطروحات المحرمات حولها والحصار الذى يطوق العقل الجمعى الذى لا يريد أن يعترف أن المرأة إنسان قبل أن تكون أنثى ولا دخل لنوعها البيولوجى بمكانتها فى السلم الاجتماعى. وهنا تكمن المفارقة فالمجتمع الذى يلح فى المطالبة بحل قضية الحريات لا يعترف بالمرأة كمواطن كامل الأهلية له نصيبه فى تلك الحريات. فالمجتمع يعطى للرجل صلاحيات وامتيازات عديدة منها الكتابة والتعبير عن مشاكله وأحلامه وإحباطاته ونزواته ولكن حينما تكتب المرأة تعبر أسواراً عالية محاطة بالأشواك من كل جانب من جانب الأسرة

ومجال العمل والأهل والأصدقاء والجيران وجميع الفئات التى تتعامل معها.

فهناك دائماً من يتحدث بالنيابة عن المرأة ويفكر لها ويوجهها باعتبارها قاصر غير قادرة على اتخاذ القرار وليس لديها منطق وحكمة الرجل ولذلك قامت البنية التحتية للمجتمع الأبوى على مركزية الكلمة الذكورية والمنطق الذكورى الذى لايستوعب إلا المنطق واللغة المماثلان له ويكتسب إيجابياته من إضفاء السلبية على الآخر المغاير. وتقوم هذه الثقافة الأحادية الذكورية فى جوهرها بوأد كل بذور تنبىء بالاختلاف وكما تقاوم أى تميز معرفى للخطاب النسوى وهنا تبرز مسؤولية هذه البنية الذكورية التى تكرس التمييز والقهر الواقع على الرجل والمرأة معاً.

لقد مارست ثلاثة أنواع من الكتابة بدأت بتجربتى الصحفية فى جريدة الأهرام على مدى عشر سنوات خلال حقبة الستينيات وأوائل السبعينيات وأتيح لى فرصة التعلم واكتساب الخبرة المهنية من زملائى ورؤسائى من قدامى الصحفيين ولكن كان هناك العديد من الخطوط الحمراء التى فرضتها ظروف المرحلة السياسية خلال الحقبة الناصرية والتى التزم بها جميع الصحفيين والصحفيات وتمثلت فى وجود الرقيب وسلطة رئيس التحرير ومعاونيه من رؤساء الأقسام وكان محظوراً ممارسة أى شكل من أشكال النقد للسلطة الحاكمة وأجهزتها الأمنية ولم يقتصر ذلك على مواد الرأى بل شمل منظومة الأخبار والتعليقات والتحقيقات الصحفية.

كان عدد الصحفيات قليلاً ولم يكن مسموحاً لهن بتقلد أية مواقع قيادية داخل الصحيفة فيما عدا قسم المرأة الذى انحصر دوره فى تغطية أخبار وأنشطة نجوم المجتمع من نساء الطبقة الوسطى وأدوارهن التقليدية فى رعاية الأسرة والأطفال والحفاظ على الزوج وشؤون الطهى والمكياج والأزياء... إلخ.

ومن أهم الصعوبات المهنية التى واجهتنى فى تلك الفترة علاقتى بمصادر الأخبار والمعلومات التى كان يحتكرها الوزراء والمحافظين والقيادات التنفيذية فى مجالات الصحة والإسكان والتعليم والاقتصاد والرعاية الاجتماعية إذ كانوا

جميعاً من الرجال المسكونين بالرؤية التقليدية للمرأة باعتبارها أنثى يجب اقتناصها وقد تعرضت للعديد من الإغراءات والمساومات من بعض المصادر الذكورية مقابل حصولى على بعض الأخبار الصحفية الهامة مما كان يضطرنى إلى مقاطعتهم وإبلاغ رؤسائى فى الصحيفة. كما تعرضت لمحاولة تجنيدى فى أجهزة الأمن السياسى ضد رئيس تحرير الأهرام وذلك عقب اعتقالى عام ١٩٦١ ضمن مجموعات اليسار المصرى. والمرة الوحيدة التى تعرضت للفصل من عملى الصحفى كانت على يد أول وزيرة للشئون الاجتماعية د. حكمت أبو زيد عندما تعرضت بالنقد للحركة النسائية المصرية فى مقال نشرته صحيفة (الاشتراكى) التى كان يصدرها الاتحاد الاشتراكى. لقد استمرت هذه الصعوبات وتعددت أشكالها لدى الأجيال الجديدة من الصحفيات والإعلاميات العربيات.

وهنا يجدر الإشارة إلى الحقائق التى أجمعت عليها كل من الدراسات وحلقات النقاش والدورات التدريبية التى شاركت فيها على المستويات المحلية والعربية والدولية والتى كشفت عن العديد من الصعوبات والعوائق التى تعترض المسيرة المهنية للصحفيات العربيات وتعزى إلى المناخ الثقافى الذكورى الذى يسيطر على بيئة العمل الإعلامى ويعيد إنتاج بل يكرس الرؤية النمطية لقضايا المرأة كما يتعمد تهميش أغلب القضايا ذات الأولوية القصوى مثل الأمية وقوانين الأحوال الشخصية والفقر ومشكلات المرأة الريفية كما كشفت هذه الدراسات عن تحيز القيادات الإعلامية ومعاناة الإعلاميات من الصورة التقليدية السائدة لدى رؤسائهم عن المرأة العاملة فى حقل الإعلام إذ يعتبرونهم أقل فى مستوى القدرات المهنية من زملائهم ولذلك يفضلون الرجال للمناصب القيادية والدورات التدريبية والمؤتمرات الدولية. كذلك كشفت الدراسات على الجانب الآخر عن افتقار معظم الإعلاميات العربيات إلى الوعى الثقافى والمجتمعى بقضية المرأة مما أدى إلى إسهامهن بوعى أو بدون وعى فى إعادة إنتاج القيم المعوقة للتطور. كما لوحظ أن السياسات الإعلامية الخاصة بالمرأة والأسرة لم يطرأ عليها أية تغيرات

إيجابية خلال فترة تولى القيادات النسائية لمواقع صنع القرار فى الحقل الإعلامى (مقروءاً ومرئياً ومسموعاً) ورغم الاهتمام العالمى الذى تصاعد خلال العقدين الماضيين وانتقل من التأكيد على أهمية الالتفات لدور المرأة على التأكيد على أهمية الالتفات لرؤية المرأة عند رسم السياسات المختلفة سواء الإعلامية أو التعليمية أو بلورة التوجهات الثقافية فيما يتعلق بقضايا التنوير وإشاعة قيم حقوق الإنسان فى المجتمع والتى تشمل ضمن أمور أخرى قيمة المساواة الحقوقية فى إطار الاعتراف بالاختلاف بين الجنسين وإعادة تعريف مفهوم الخصوصية الثقافية الذى يستخدم على نحو يتضمن أحياناً إهداراً لحقوق المرأة من جانب بعض التيارات السلفية.

أما تجربتى الثانية فى الكتابة فقد كان مجالها البحث العلمى وامتدت عبر أربعة عقود تتلمذت خلالها على أيدى نخبة متميزة من الأساتذة والعلماء المصريين والعرب والأجانب وانتميت إلى المدرسة النقدية فى العلوم الاجتماعية وتمثلت أهم الصعوبات التى واجهتنى فى سيطرة التيار الوظيفى الأمبريقى على مختلف فروع العلم الاجتماعى (سياسة – اقتصاد – إعلام – قانون... الخ) وقد انتقل هذا التيار إلى الحقل الأكاديمى فى الإعلام والصحافة وشكل أنصاره عدد كبير من أشباه العلماء الذين تصدوا بضراوة للتوجهات النقدية وأصبحوا رافداً قوياً للسلطة القائمة حيث تم توظيفهم لتبرير سياساتها التعليمية والعلمية التابعة للغرب وأيديولوجية السوق مما أهدر الخصوصية المعرفية والثقافية للبحوث العلمية فى حقل الإعلام بل عطل نمو التيارات النقدية حيث تم تجاهل البحوث الأساسية والاستراتيجية فى هذا الحقل الهام مع الاستمرار فى الترويج لبحوث التسويق والإعلانات وتهميش وإقصاء الباحثين المنتمين للتيار النقدى عن كافة المواقع القيادية فى الجامعة.

ولعل أبرز ما تحويه تجربة الكتابة البحثية ذلك العدوان الصارخ على الحريات الأكاديمية والثمن الفادح الذى دفعته بسبب كتابى عن الصحافة الصهيونية فى

مصر الذى صدر عام ١٩٧٩ وكشفت من خلاله الدور الذى قامت به الحركة الصهيونية فى تحويل مصر إلى منبر للدعاية لما يسمى بالوطن القومى لليهود فى فلسطين وتعرضت لسلسلة من الافتراءات لتشويه سمعتى العلمية داخل الجامعة ومنعى من السفر لحضور المؤتمرات الدولية فضلاً عن التهديدات التى تلقيتها من جماعة كاخ الصهيونية يحذرونى من أنه (إذا لم تتوقفى عن الإساءة إلى الصهيونية سوف نخرسك إلى الأبد).

وقد استلهمت عدة دروس من هذه الدراسة التى كشفت لى بصورة جلية كيف أن الصحف الصهيونية فى مصر كانت تحارب الصحف الوطنية المعادية للصهيونية بشن هجوم مكثف مستخدمة أحط الأساليب والتهم الأخلاقية بل واستعداء السلطات ضدهم متهمة إياهم بإثارة الفتنة الطائفية وتمزيق الوحدة الوطنية والإضرار بالقضية المصرية وهى نفس التهم التى واجهونا بها لدى المدعى الاشتراكى عندما قام السادات باعتقالنا عام ١٩٨١ لمعارضتنا اتفاقية الصلح مع إسرائيل.

وقد اتبعت الصهيونية العالمية نفس الأسلوب مع كورت فالدهايم السكرتير السابق للأمم المتحدة عندما ألصقت به تهمة التعامل مع النازية أثناء الحرب العالمية الثانية مما قضى على مستقبله السياسى فى بلده (النمسا) وذلك عقاباً له على صدور قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية عام ١٩٧٥ أثناء توليه منصب سكرتير عام الأمم المتحدة. ويمكن الاستشهاد بالعديد من الأمثلة سواء من واقع التجربة الصهيونية فى مصر أو من داخل الكيان الصهيونى ذاته حيث تبرز قضية البروفيسور إيلان بابيه ومحاكمته وطرده من الجامعة العبرية بسبب موافقته على تسجيل رسالة ماجستير للطالب تيودور كاتز عن مذبحة الطنطورة التى ارتكبها الجنود الصهاينة وراح ضحيتها المئات من الفلسطينيين عام ١٩٤٨.

ولقد تواصلت أشكال العدوان على حريتى الأكاديمية وتراوحت ما بين بث عيون الأمن داخل المدرجات وتسجيل محاضراتى التى واجهونى بها عند اعتقالى

وبين حرمانى من تدريس بعض فروع التخصص التى لها مساس بالرأى العام.

السيرة الذاتية:

التجربة الثالثة فى الكتابة:

تحتل السيرة الذاتية مكانة مرموقة فى الثقافة العربية تبلغ حد التقديس فى السيرة المحمدية والتى تعتبر مصدراً من مصادر التشريع وهى مصدر إلهام السيرة الشعبية وإن تم فهمها وتفسيرها بأشكال مختلفة طوال التاريخ العربى. ولم يعرف الأدب العربى أدب السيرة الذاتية كما نعرفه اليوم إلا مؤخراً ويعتبر سلامة موسى أول من استخدم مصطلح السيرة الذاتية فى كتابه المعنون (تربية سلامة موسى). وقد تغير مفهوم السيرة الذاتية فى الأدب العربى نتيجة التأثر بالنصوص الغربية.

وإذا كانت السيرة الذاتية العربية قد استلهمت النوع الأدبى الغربى المشابه وتأثرت به إلا أن الكتاب العرب لم يستوردوا العقل الذى يقف خلف ذلك إن كان له وجود. لقد استلهموا الشكل السردى وتأثروا به. ويمكن القول أن الكتابة الذاتية العربية قد ارتبطت بالتطور الاجتماعى والثقافى فى العالم العربى وليس بالثقافة الغربية التى لم تكن سوى عامل مساعد. ولم يكن للطفولة دور يذكر فى السير الكلاسيكية فى الأدب العربى القديم ولكن كان يتم التركيز عليها فى النصوص الحديثة. أما مرحلة المراهقة فلم تحظ بالاهتمام سواء فى الأدب العربى أو الغربى حيث يتم التركيز على مرحلتى الطفولة والنضج وتغيب هذه المرحلة.

وعند قراءة حصاد السيرة الذاتية العربية سرعان ما نلحظ أنها خرجت عن الصيغ المألوفة فى التراث وكسرت ما هو مألوف وأصبحت السيرة تعبر عن أدب الاحتجاج الاجتماعى الملتزم وتعبر عن رؤية الكاتب للعالم المحيط به. وقد وضح فى النصوص العربية الحديثة تأثير النصوص الأجنبية عليها ومحاكاتها فى بعض الأحيان. ولذلك يشير بعض الكتاب لنصوص بعينها مثل اعترافات

جان جاك روسو ومكسيم جوركى وتولستوى وسومرست موم وسارتر مما يشير إلى أن أثر الموروث فى فن السيرة بدأ يتوارى ليحل محله النماذج الغربية.

وتغلب تجربة الطفولة على عدد كبير من الأعمال كما تبرز الأيام لطه حسين فى صدارة أعمال السيرة الذاتية وتعتبر مرجعاً أساسياً لكُتاب السيرة الذاتية العرب. وقد لوحظ أن أغلب السير الذاتية العربية تركز على الجوانب العامة والسياسية ولا تملك الجرأة على كشف مكنونات الواقع المجتمعى والحياة الخاصة بتشابكاتها وتعقيداتها وتناقضاتها التى لا تزال محكومة بقوة السلطة الاجتماعية التى تحول دون حرية البوح والإفصاح وسائر الصراعات بين الذات والآخر إذ أن جميع هذه الجوانب لا تزال مخبأة فى صندوق أسود محكم الغلق لا يمكن الإفشاء به أو إعلانه مكتوباً ومدوناً ومعروضاً على الرأى العام وهنا تبرز إشكالية حدود العام والخاص لدى كتاب السيرة الذاتية وقد لوحظ مثلاً أن سيرة أنديرا غاندى لم تتعرض لحياتها الخاصة واقتصرت على الجوانب السياسية فقط أما بابلونيرودا فقد غاص فى دهاليز النفس والوجدان وحاول إخراج ما استطاع من أسرار وكوامن مذهلة فى صدقها وتأثيرها وعندما حاول د. جلال أمين فى سيرته الذاتية أن يعرض فى اقتضاب بعض الجوانب الخاصة بقضية غرام والدته بابن خالها قبل زواجها من والده الدكتور أحمد أمين تعرض لنقد شديد من جانب الكثير من المثقفين مما يطرح بإلحاح تساؤلاً جديراً بالتأمل ما هى حدود الحرية المسموح بها لكاتب السيرة الذاتية فى عالمنا العربى فهو يواجه بخطوط حمراء وضعها المجتمع العربى بموروثاته الدينية وتقاليده الثقافية والاجتماعية والتى يمكن أن تطيح بالقيمة المعرفية والأدبية لمضمون السيرة وكاتبها. كما تبرز عقبة أخرى أمام كاتب السيرة تتمثل فى عدم تأهيله منذ الصغر لكتابة ما يمر به فى حياته من أحداث وأشخاص مما يؤثر سلباً على الذاكرة بمرور الزمن وتوالى الأحداث فيأتى السرد منقوصاً ومفتقراً إلى الدقة والشمول.

هذا ويلاحظ أن كاتبات السيرة الذاتية العربيات لم يبدأن فى كتابة السيرة الذاتية

كما هى معروفة حالياً إلا فى وقت حديث نسبياً يرجع إلى أواخر الثلاثينات عندما كتبت بعض النساء مذكراتهن ولكن دون أى قصد أو هدف أدبى وعلى العكس من ذلك شهد الأدب العربى انفجاراً فى كتابات المرأة العربية للسيرة الذاتية فى السنوات الأخيرة.

لقد تزاحمت فى ذهنى التساؤلات المحيرة قبل أن أفكر فى كتابة هذه السيرة ما هو الهدف من كتابة السيرة الذاتية؟ هل هو السعى من أجل الحرية التى نتحقق من خلال الصراع مع أشكال السلطة المختلفة التى تتجسد أصلاً فى الأسرة الأبوية ثم تترسخ فى سائر مؤسسات المجتمع التربوية والسياسية والثقافية؟ أم أن الهدف هو إلقاء الضوء بعيون الطفلة على خفايا أهلى المهمشين فى الصعيد؟ أم الكشف عن المستور فى مسيرة رفاق الطريق من الرجال والنساء سواء الذين ساندونى أو الذين غدروا بى؟!

وما أهمية الطفولة فى السيرة الذاتية؟ وهل تمثل الطفولة بداية الوعى بالذات؟ أعلم أن الطفولة فى مرحلة عمرية متقدمة هى محاولة لاستعادة زمن ولى ولا يمكن استعادته وأن السيرة بكل أشكالها تعبر عن الأنا والآخر فى كافة صوره. كما أن التذكر فى كتابة السيرة ليس تسجيلاً سلبياً وإنما عملية خلق مستمرة. على مدى العقدين الماضيين أربكنى إلحاح أساتذتى وأصدقائى وطلابى الذين لم ييأسوا من حثى على الكتابة عن طفولتى فى الصعيد وسائر الانحناءات والتعرجات التى اعترضت طريقى منذ أن اعترضت أمى على مجيء للحياة رفضاً منها للاستمرار مع أبى ومنذ أن بادرنى خالى فى إحدى زياراته للقرية وكنت فى السادسة من عمرى وقال لى (أنت لسه مارحتيش المدرسة لغاية دلوقتى يظهر إنك حتفضلى جاهلة شغلتك الخبيز وحلب البقر مثل عمتك حميدة).

بدأت الفكرة تتبلور أثناء اعتقالى فى سجن النساء عام ١٩٨١ واكتملت فى اليابان ١٩٩١ خلال إحدى المؤتمرات التى شاركت فيها بعد حرب الخليج وشجعتنى صديقتى سانا سوزوكى أستاذة الأدب المقارن بجامعة طوكيو على

كتابة سيرتى الذاتية قبل أن تلتهم آلة الزمن ذاكرتى فلا أستطيع أن أنقلها إلى أحفادى وأجيال الغد إذ قالت لى (لابد أن تخطى على الورق تجربتك الحياتية مع الناس الذين عبروا بك وعبرت بهم خلال الطفولة والصبا والشباب هؤلاء الذين أحببتيهم وانتميت إليهم وأولئك الذين سقطوا من حياتك هؤلاء الذين وثقوا بك واحتضنوا رعونتك وواصلوا معك الطريق وأولئك الذين يذروا الشك فى ثنايا نفسك وأهانوا الطفل القابع بداخلك وأخيراً الذين قسوا عليك – وأيقظوا روح التمرد والرفض ويسبق هؤلاء جميعاً أولئك الذين تعلمت منهم الكثير ولم يبخلوا عليك بعلمهم وحكمتهم).

اقتنعت بما قالته لى الصديقة اليابانية سانا ولكن بعد عودتى للوطن استغرقتنى مشاغل الحياة ودواماتها المربكة وتقلباتها التى لا ترحم خصوصاً عملى الأكاديمى الذى مارسته بالتزام يصل إلى حد الشغف سواء فى التدريس أو البحث العلمى علاوة على التزاماتى الاجتماعية والإنسانية تجاه أهلى فى الصعيد ومشاركتى فى العمل العام السياسى والاجتماعى من ندوات ومؤتمرات ومظاهرات احتجاج. حاولت أن ألقى الضوء على طفولتى التى أمضيتها فى قرية الزرابى التى يحتضنها الجبل الغربى جنوب أسيوط والمعروف أن الصعيد عموماً قد عانى من التهميش والتجهيل على مدى عقود طويلة والكثرة الغالبة من المثقفين والمنشغلين بالشأن العام لا يعلمون شيئاً عن دخائل الحياة وأسرارها ومآسيها فى هذه البقعة من الوطن ويكتفون بالمعلومات السطحية المبتورة التى يستقونها من وسائل الإعلام والتى تقتصر على الأنشطة الرسمية والإنجازات الوهمية للحكم المحلى ولا يقتربون من القرى والنجوع التى تحفل بكم هائل من كفاح وصمود البشر المكبلين بالموروثات المعوقة لإرادة هؤلاء البشر وتطلعهم المشروع للنهوض وعلى الأخص ما تواجهه المرأة الصعيدية من قمع وحرمان من حقوقها الإنسانية يتواصل بثبات جيلاً بعد جيل. أردت أن أرصد ما تبقى فى ذاكرتى داخل البيوت والدواوير التى شهدت طفولتى المبكرة واستندت إلى ما كانت ترويه جدتى

الكفيفة صفصافة وأمى وخالاتى وعماتى عن خفايا وأسرار العلاقات المتشابكة والمصالح المتعارضة وجبروت التقاليد وقسوة وسطوة الرجال ولم أغفل على الجانب الآخر الجوانب المضيئة والتى تتمثل فى الأفراح القليلة والمواويل والأذكار والأغانى المشحونة بالشجن. حاولت أن أكشف عن روح الشهامة والنقاء والاستقامة الأخلاقية التى تكمن خلف أقنعة الجهامة والجمود التى تغلف وجوه أهلى فى الصعيد.

لقد قدر لى أن يتزامن مولدى مع نشوب الحرب العالمية الثانية وعاصرت حرب فلسطين من خلال حكايات أمى التى كانت تنقل لى ولشقيقى تفاصيل المعارك والمذابح التى ارتكبتها العصابات الصهيونية ضد الأطفال والنساء الحوامل فى فلسطين. كما شهدت مولد ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتميت إلى المواقف الوطنية والسياسات الاجتماعية للزعيم جمال عبد الناصر كذلك اكتويت بإخفاقاتها وانكساراتها خصوصاً هزيمة يونيو ١٩٦٧.

كما شغلت تجربة الاعتقال فى سبتمبر ١٩٨١ موقعاً متميزاً فى السيرة فلم أكتفى بسرد وقائعها منذ وصولى بصحبة ابنى إلى مطار القاهرة عائدة من مؤتمر دولى عقدته الأمم المتحدة ببرلين عن التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا وفلسطين. وقمت بتسليم نفسى إلى شرطة المطار وذهب ابنى مع أبيه ثم تم ترحيلى إلى سجن النساء بالقناطر الخيرية كى ألحق بالرفيقات اللواتى سبقونى وهناك عشت الحياة المشتركة فى العنبر الذى ضم ١٠ معتقلات كانوا ينتمون إلى اليسار والجماعات الإسلامية وأمضيت مائة يوم ثم تم الإفراج عنا فى ١٢ ديسمبر ١٩٨١ بعد اغتيال السادات وتولى حسنى مبارك السلطة. وقد حرصت على أن أضم إلى هذه الوقائع حزمة من الأوراق سطرتها فوق جردل مقلوب بجوار حمام العنبر فى بعض الأمسيات ذات الضوء الخافت وقمت بتسريبها خارج السجن بمساعدة السجانات وبعض الأصدقاء. ولم تتوقف السيرة عند تجربة الانتخابات التى خضتها فى جنوب أسيوط عام ١٩٨٤. حيث أتاحت لى جولاتى الانتخابية فى قرى

ونجوع الجبل الغربى فرصة نادرة للتعرف على تفاصيل زاخرة بالمرارة والتهميش وقسوة الحياة التى يحياها الفقراء فى صعيد مصر بل أضفت إليها فى إيجاز غير مخل بعض جولاتى فى قارات العالم الخمس حيث زرت ٥٢ دولة فى إطار المؤتمرات والدعوات العلمية واحتفالات الاستقلال الوطنى. وتوطدت خلالها علاقاتى بزعماء التحرر الوطنى الأفريقى مثل جوشوا نكوموا وسام نجوما ومانديلا وأوليفر تامبو ولومومبا وجومو كنياتا.